

أُصُولُ الْحَوَارِ وَأَدَابُهُ فِي الْإِسْلَامِ

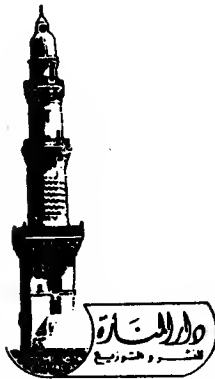
بقلم
صالح بن عبد الله بن حميد

دار المنارة للنشر والتوزيع

جدة - مكة

الطبعة الاولى
١٩٩٤ - ١٤١٥

رقم الإيداع : ١٥/٠٨١٧
ردمك : ٦ - ١ - ٩٠٦١ - ٩٩٦٠



دار المناصرة
للتنوير والتوثيق
هاتف: ٦٦٠٣٦٥٢ - فاكس: ٦٦٠٣٢٢٨ - المَسْتَوَدَع: ٦٦٧٥٨٦٤
جَدَّة ٢١٤٣١ - ص.ب. ١٢٥٠ - المملكة العربية السعودية

أَصُولُ الْجَوَارِ وَأَدَابُهُ
فِي الْإِسْلَامِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

توطئة :

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على رسوله وخيرته من خلقه ، ومصطفاه من رسله سيدنا ونبينا محمد رسول الله ، بعثه بالحق بشيراً ونذيراً ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجعلنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، صلى الله وسلم وبارك عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى أصحابه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد :

أيها الاخوة :

هذه كلمات في أدب الحوار مُشتملةً العناصر التالية : تعريف الحوار وغايته ، ثم تمهيد في وقوع الخلاف في الرأي بين الناس ، ثم بيان لمُجمل أصول الحوار ومبادئه ، ثم بسط لأدابه وأخلاقياته .

سائلاً المولى العلي القدير التسديد والقبول . .

تعريف :

الحوار : من المُحاورة ؛ وهي المُراجعة في الكلام .
الجدال : من جَدَلَ الحبل إذا فَتَلَهُ ؛ وهو مستعمل في الأصل
لمن خصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، ثم
استعمل في مُقابلة الأدلة لظهور أرجحها .

والحوار والجدال ذو دلالة واحدة ، وقد اجتمع اللفظان في قوله
تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ
وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ . المجادلة ١ .

ويراد بالحوار والجدال في مصطلح الناس : مناقشة بين طرفين
أو أطراف ، يُقصد بها تصحيح كلامٍ ، وإظهار حجّةٍ ، وإثبات
حقٍ ، ودفع شبهةٍ ، وردُّ الفاسد من القول والرأي .

وقد يكون من الوسائل في ذلك : الطرق المنطقية والقياسات
الجدلية من المقدمات والمسلّمات ، مما هو مبسوط في كتب
المنطق وعلم الكلام وآداب البحث والمناظرة وأصول الفقه^(١) .

(١) راجع في التعريف : تعريفات الجرجاني : مادة (جدل) . والمصباح
المنير مادتي : حور وجدل .

غاية الحوار:

الغاية من الحوار إقامة الحجة ، ودفعُ الشبهة والفساد من القول والرأي . فهو تعاون من المتناظرين على معرفة الحقيقة والتوصل إليها ، ليكشف كل طرف ماخفي على صاحبه منها ، والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق . يقول الحافظ الذهبي : (إنما وضعت المناظرة لكشف الحق ، وإفادة العالم الأذكى العلم لمن دونه ، وتنبية الأغفل الأضعف) (١) .

هذه هي الغاية الأصلية ، وهي جليّة بيّنة ، وثمّت غايات وأهداف فرعية أو مُمهّدة لهذه الغاية منها :

- إيجاد حلٍ وسطٍ يُرضي الأطراف .
- التعرف على وجهات نظر الطرف أو الأطراف الأخرى ، وهو هدف تمهيدي هام .
- البحث والتنقيب ، من أجل الاستقصاء والاستقراء في تنوع الرؤى والتصورات المتاحة ، من أجل الوصول إلى نتائج أفضل وأمكن ، ولو في حوارات تالية .

(١) راجع شرح المواهب للزرقاني ٣٩٠/٥ .

وقوع الخلاف بين الناس :

الخلاف واقع بين الناس في مختلف الأعصار والأمصار ، وهو سنة الله في خلقه ، فهم مختلفون في ألوانهم وألسنتهم وطباعهم ومُدركاتهم ومعارفهم وعقولهم ، وكل ذلك آية من آيات الله ، نبّه عليه القرآن الكريم في قول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ وَالْوَنُكُورِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . الروم ٢٢ .

وهذا الاختلاف الظاهريّ دالٌّ على الاختلاف في الآراء والاتجاهات والأغراض . وكتاب الله العزيز يقرر هذا في غير ما آية ؛ مثل قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . هود ١١٨ .

يقول الفخر الرازي : (والمراد إختلاف الناس في الأديان والأخلاق والأفعال) .

ومن معنى الآية : لو شاء الله جعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفترة . . لا رأي لهم فيه ولا اختيار . . وإذن لما كانوا هذا النوع من الخلق المُسمّى البشر ؛ بل لكانوا في

خلقوا مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم
وأرائهم ومشاعرهم ، وما يتبع ذلك من إراداتهم واختيارهم في
أعمالهم ، ومن ذلك الإيمان ، والطاعة ، والمعصية (١) .

وضوح الحق وجلأؤه :

وعلى الرغم من حقيقة وجود هذا التباين بين الناس ؛ في
عقولهم ومُدركاتهم وقابليتهم للاختلاف ، إلا أن الله وضع على
الحقَّ معالمَ ، وجعل على الصراط المستقيم منائرَ . . وعليه
حُمل الاستثناء في الآية في قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ ﴾ هود ١١٩ .
وهو المنصوص عليه في الآية الأخرى في قوله : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا لِمَا آخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ البقرة ٢١٣ .

وذلك أن النفوس إذا تجرّدت من أهوائها ، وجدّت في تلمُّس
الحقِّ فإنها مهديّةٌ إليه ؛ بل إن في فطرتها ما يهديها ، وتأمّل ذلك
في قوله تعالى : ﴿ فَأَقْرِبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . الروم : ٣٠ .

(١) تفسير المنار جزء ١٢ ص ١٩٤ .

ومنه الحديث النبوي : « مامن مولود إلا يؤلّد على الفِطْرة ، فأبواه يهودانه ، ويُنصّرانه ، ويُمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسّون فيها من جدّعاء حتى أنتم تجدعونها ؟ » .

ويُوضّح ذلك ، أن أصول الدين ، وأمّهات الفضائل ، وأمّهات الرذائل ، مما يتفق العالم الرشيد العاقل على حُسن محموده وحمده ، والاعتراف بعظيم نفعه ، وتقبيح سيئه وذمّه .

كل ذلك في عبارات جليّة واضحة ، ونصوص بيّنة لا تقبل صرفاً ولا تأويلًا ولا جدلاً ولا مرأاً . وجعلها أم الكتاب التي يدور عليها وحولها كل ماجاء فيه من أحكام ، ولم يُعذّر أحد في الخروج عليها ، وحذّر من التلاعب بها ، وتطويعها للأهواء والشهوات والشبهات بتعسف التأويلات والمُسوِّغات ، مما سنذكره كأصل من أصول الحوار . أما مادون ذلك فقد عذّر الخلق إذا ما اختلفوا في غيرها ، ورفع الحرج عنهم ، بل جعل للمخطيء أجراً وللمصيب أجرين تشجيعاً للنظر والتأمل ، وتلمّس الحقّ واستجلاء المصالح الراجحة للأفراد والجماعات . ولربك في ذلك الحكمة البالغة والمشية النافذة .

مواطن الاتفاق :

إنَّ بَدْءَ الحديث والحوار بمواطن الاتفاق طريق إلى كسب الثقة وفُسُوْرُوح التفاهم . ويصير به الحوار هادئاً وهادفاً .

الحديث عن نقاط الاتفاق وتقريرها يفتح آفاقاً من التلاقي والقبول والإقبال ، مما يقلل الجفوة ويردم الهوة ويجعل فرص الوفاق والنجاح أفضل وأقرب ، كما يجعل احتمالات التنازع أقل وأبعد .

والحال ينعكس لو استفتح المُتَحاورون بنقاط الخلاف وموارد النزاع ، فذلك يجعل ميدان الحوار ضيقاً وأمدته قصيراً ، ومن ثم يقود إلى تغيير القلوب وتشويش الخواطر ، ويحمل كل طرف على التحفُّز في الرد على صاحبه مُتتَبِعاً لثغراته وزَلَّاتِهِ ، ومن ثم ينبري لإبرازها وتضخيمها ، ومن ثم يتنافسون في الغلبة أكثر مما يتنافسون في تحقيق الهدف .

ومما قاله بعض المُتمرِّسين في هذا الشأن :

دَعُ صاحبك في الطرف الآخر يوافق ويجيب بـ (نعم) ، وحلُ ما استطعت بينه وبين (لا) ؛ لأن كلمة (لا) عقبة كؤود يصعب

اقتحامها وتجاوزها ، فمتى قال صاحبك : (لا) ؛ أوجبت عليه كبرياؤه أن يظل مناصراً لنفسه .

إن التلفظ بـ (لا) ليس تفوهاً مجرداً بهذين الحرفين ، ولكنه تحفُّز لكيان الإنسان بأعصابه وعضلاته وغدده ، إنه اندفاع بقوة نحو الرفض ، أما حروف (نعم) فكلمة سهلة رقيقة رفيقة لا تكلف أي نشاط جسماني^(١) .

ويُعين على هذا المسلك ويقود إليه ؛ إشعارك مُحدثك بمشاركتك له في بعض قناعاته ؛ والتصريح بالإعجاب بأفكاره الصحيحة وأدلتها الجيدة ومعلوماته المفيدة ، وإعلان الرضا والتسليم بها . وهذا كما سبق يفتح القلوب ويُقارب الآراء ، وتسود معه روح الموضوعية والتجرد .

وقد قال علماؤنا : إن أكثر الجهل إنما يقع في النفي ؛ الذي هو الجحود والتكذيب ؛ لا في الإثبات ، لأن إحاطة الإنسان بما يُثبتُه أيسر من إحاطته بما ينفيه ؛ لذا فإن أكثر الخلاف الذي يُورث الهوى نابع ؛ من أن كل واحد من المختلفين مصيب فيما يُثبتُه أو في بعضه ، مخطيء في نفي ما عليه الآخر^(٢) .

(١) أصول الحوار ص ٤٦ .

(٢) تنبيه أولى الأبصار د. صالح السحيمي ص ٢٨ بتصرف .

أصول الحوار :

الأصل الأول :

سلوك الطرق العلمية والتزامها ، ومن هذه الطرق :

١ - تقديم الأدلة المُثَبِّتة أو المرجَّحة للدعوى .

٢ - صحة النقل في الأمور المنقولة .

وفي هذين الطريقتين جاءت القاعدة الحوارية المشهورة : (إن

كنت ناقلاً فالصحة ، وإن كنت مدّعياً فالدليل) .

وفي التنزيل جاء قوله سبحانه : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴾ في أكثر من سورة : البقرة : ١١١ ، النمل ٦٤ .

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي ﴾ الأنبياء ٢٤ .

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتَلُّوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ آل عمران ٩٣ .

الأصل الثاني :

سلامة كلام المناظر ودليله من التناقض ؛ فالمتناقض ساقط

بداهة .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره بعض أهل التفسير من :

١ - وصف فرعون لموسى عليه السلام بقوله : ﴿ سَاحِرٌ وَّ

مَجْنُونٌ ﴾ الذاريات ٣٩ .

وهو وصف قاله الكفار - لكثير من الأنبياء بما فيهم كفار الجاهلية - لنبينا محمد ﷺ . وهذان الوصفان السحر والجنون لا يجتمعان ، لأن الشأن في الساحر العقل والفتنة والذكاء ، أما المجنون فلا عقل معه البتة ، وهذا منهم تهافت ظاهر وتناقض بين .

٢ - نعت كفار قريش لآيات محمد ﷺ بأنها سحر مستمر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ القمر : ٢ .

وهو تناقض ؛ فالسحر لا يكون مستمراً ، والمستمر لا يكون سحراً .

الأصل الثالث :

ألا يكون الدليل هو عين الدعوى ، لأنه إذا كان كذلك لم يكن دليلاً ، ولكنه إعادة للدعوى بالفاظ وصيغ أخرى . وعند بعض المُحاورين من البراعة في تزويق الألفاظ وزخرفتها ما يوهم بأنه يُورد دليلاً . وواقع الحال أنه إعادة للدعوى بلفظ مُغاير ، وهذا تحايل في أصول الحوار باطل ؛ بل هو حَيْدَةٌ عن طلب الحق ، وسبيل لإطالة النقاش من غير فائدة .

الأصل الرابع :

الاتفاق على منطلقات ثابتة وقضايا مُسَلِّمة . وهذه المُسَلِّمات والثوابت قد يكون مرجعها ؛ أنها عقلية بحتة لاتقبل النقاش عند العقلاء المتجردين ؛ كحُسنِ الصدق ، وقُبْحِ الكذب ، وشُكر المُحسن ، ومعاقبة المُذنب .

أو تكون مُسَلِّمات دينية لا يختلف عليها المعتنقون لهذه الديانة أو تلك .

وبالوقوف عند الثوابت والمُسَلِّمات ، والانطلاق منها يتحدد مُريد الحق ممن لا يريد إلا المرء والجدل والسفسطة .

ففي الإسلام الإيمان بربوبية الله وعبوديته ، وأتَّصفه بصفات الكمال ، وتنزيهه عن صفات النقص ، ونبوة محمد ﷺ ، والقرآن الكريم كلام الله ، والحكم بما أنزل الله ، وحجاب المرأة ، وتعدد الزوجات ، وحرمة الربا ، والخمر ، والزنا ؛ كل هذه قضايا مقطوع بها لدى المسلمين ، وإثباتها شرعاً أمر مفروغ منه .

إذا كان الأمر كذلك ؛ فلا يجوز أن تكون هذه محل حوار أو نقاش مع مؤمن بالإسلام لأنها محسومة .

فقضية الحكم بما أنزل الله منصوص عليها بمثل : ﴿ فَلَا
 وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ النساء :
 ٦٥ . ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾
 المائدة : ٤٤ .

وحجاب المرأة محسوم بجملة نصوص :

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لَأَزْوَاجِكِ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَكَ
 عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابٍ عُنُقٍ . . . ﴾ الأحزاب : ٥٩ .

وقد يسوغ النقاش في فرعيات من الحجاب ؛ كمسألة كشف
 الوجه ، فهي محل اجتهاد ، أما أصل الحجاب فليس كذلك .
 الربا محسوم ؛ وقد يجري النقاش والحوار في بعض صورته
 وتفرعاته .

ومن هنا فلا يمكن لمسلم أن يقف على مائدة حوار مع سبيوعي
 أو ملحد في مثل هذه القضايا ؛ لأن النقاش معه لا يتبدىء من
 هنا ، لأن هذه القضايا ليست عنده مُسَلِّمة ، ولكن يكون النقاش
 معه في أصل الديانة ؛ في ربوبية الله ، وعبودية ونبوة محمد ﷺ ،
 وصدق القرآن الكريم وإعجازه .

ولهذا فإننا نقول إن من الخطأ - غير المقصود - عند بعض المثقفين والكتابين إثارة هذه القضايا ، أعني : تطبيق الشريعة - الحجاب - تعدد الزوجات - وأمثالها في وسائل الإعلام ، من صحافة وإذاعة على شكل مقالات أو ندوات بقصد إثباتها أو صلاحيتها . أما إذا كان المقصود : النظر في حِكْمِهَا وأسرارها وليس في صلاحيتها وملاءمتها فهذا لا حرج فيه ، إذ :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ الأحزاب ٣٦ .

وأخيراً ؛ فينبني على هذا الأصل ؛ أن الإصرار على إنكار المُسَلِّمات والثوابت مكابرة قبيحة ، ومجاراة منحرفة عن أصول الحوار والمناظرة ، وليس ذلك شأن طالبي الحق .

الأصل الخامس :

التجرُّد ، وقصد الحق ، والبعد عن التعصب ، والالتزام بأداب الحوار :

إن إتباع الحق ، والسعي للوصول إليه ، والحرص على الالتزام به ؛ هو الذي يقود الحوار إلى طريق مستقيم لا عوج فيه

ولا التواء ، ويحول دون الانسياق وراء الهوى ؛ سواء كان هوى النفس ، أو هوى الجمهور ، أو الأتباع . . . والعامل - فضلاً عن المسلم - الصادق طالبٌ حقٍّ ، باحثٌ عن الحقيقة ، ينشد الصواب ويتجنب الخطأ .

يقول الغزالي أبو حامد : (التعاون على طلب الحق من الدين ، ولكن له شروط وعلامات ؛ منها أن يكون في طلب الحق كناشد ضالّة ، لا يفرق بين أن تظهر الضالّة على يده أو على يد معاونه . ويرى رفيقه معيناً لا خصماً . ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهره له) . . . الإحياء ج ١

ومن مقولات الإمام الشافعي المحفوظة : (ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يُوفّق ويُسدّد ويُعان ، وتكون عليه رعاية الله وحفظه .

وماناظرني فباليتُ ! أظَهَرَتِ الحَجَّةُ على لسانه أو لساني) .

وفي ذمّ التعصب ولو كان للحق ، يقول الغزالي :

(إن التعصّب من آفات علماء السوء ، فإنهم يُبالغون في التعصّب للحقّ ، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار ، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة

والمعاملة ، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ، ويقوى
غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه . ولو جاؤوا من جانب اللطف
والرحمة والنصح في الخلوة ، لا في معرض التعصب والتحقير
لأنجحوا فيه ، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ،
ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والتهم للخصوم ، اتخذوا
التعصب عادتهم والتهم (١) .

والمقصود من كل ذلك أن يكون الحوار بريئاً من التعصب ،
خالصاً لطلب الحق ، خالياً من العنف والانفعال ، بعيداً عن
المشاحنات الأنانية والمغالطات البيانية ، مما يفسد القلوب ،
ويهيح النفوس ، ويولد النفرة ، ويوغر الصدور ، وينتهي إلى
القطيعة .

وهذا الموضوع سوف يزداد بسطاً حين الحديث عن آداب
الحوار إن شاء الله .

(١) الاحياء ح ١ .

الأصل السادس :

أهلية المحاور :

إذا كان من الحق ألا يمنع صاحب الحق عن حقه ، فمن الحق ألا يعطى هذا الحق لمن لا يستحقه ، كما أن من الحكمة والعقل والأدب في الرجل ألا يعترض على ما ليس له أهلاً ، ولا يدخل فيما ليس هو فيه كفوؤاً .

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من كان على الباطل .

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يعرف الحق .

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يجيد الدفاع عن

الحق .

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يدرك مسالك

الباطل .

إذن ، فليس كل أحد مؤهلاً للدخول في حوار صحي صحيح

يؤتي ثماراً يانعة ونتائج طيبة .

والذي يجمع لك كل ذلك : (العلم) ؛ فلا بد من التأهيل

العلمي للمُحاور ، ويقصد بذلك التأهيل العلمي المختص .

إن الجاهل بالشيء ليس كفوًّا للعالم به ، ومن لا يعلم لا يجوز أن يجادل من يعلم ، وقد قرر هذه الحقيقة إبراهيم عليه السلام في محاجته لأبيه حين قال : ﴿ يَأْتِيَنِي قَدْ جَاءَ فِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ مريم ٤٣ .

وإن من البلاء ؛ أن يقوم غير مختص ليعترض على مختص ؛ فَيُخْطِئُهُ وَيُعَلِّطُهُ .

وإن حق من لا يعلم أن يسأل ويفهم ، لا أن يعترض ويجادل بغير علم ، وقد قال موسى عليه السلام للعبد الصالح : ﴿ هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ . الكهف ٦٦ .
فالمستحسن من غير المختص ؛ أن يسأل ويستفسر ، ويفكر ويتعلم ، ويتلمذ ويقف موقف موسى مع العبد الصالح .

وكثير من الحوارات غير المنتجة مردُّها إلى عدم التكافؤ بين المتحاورين ، ولقد قال الشافعي رحمه الله : (ماجادلت عالماً إلاَّ وغلبته ، وماجادلني جاهل إلاَّ غلبني !) . وهذا التهكم من الشافعي رحمه الله يشير إلى الجدال العقيم ؛ الذي يجري بين غير المتكافئين .

الأصل السابع :

قطعية النتائج ونسبيتها :

من المهم في هذا الأصل إدراك أن الرأي الفكري نسبيُّ الدلالة على الصواب أو الخطأ ، والذي لايجوز عليهم الخطأ هم الأنبياء عليهم السلام فيما يبلغون عن ربهم سبحانه وتعالى ، وماعدا ذلك فيندرج تحت المقولة المشهورة (رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي الآخر خطأ يحتمل الصواب) .

وبناء عليه ؛ فليس من شرط الحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر . فإن تحقق هذا واتفقا على رأي واحد فنعم المقصود ، وهو منتهى الغاية . وإن لم يكن فالحوار ناجح ، إذا توصل المتحاوران بقناعة إلى قبول كلٍ من منهجيهما ؛ يسوغ لكل واحد منهما التمسك به مادام أنه في دائرة الخلاف السائغ . وماتقدم من حديث عن غاية الحوار يزيد هذا الأصل إيضاحاً .

وفي تقرير ذلك يقول ابن قدامة رحمه الله : (وكان بعضهم يعذر كل من خالفه في المسائل الاجتهادية ، ولا يكلفه أن يوافقه فهمه) اهـ . من المعني .

ولكن يكون الحوار فاشلاً إذا انتهى إلى نزاع وقطيعة ، وتدابير ومكايدة وتجهيل وتخطئة .

الأصل الثامن :

الرضا والقبول بالتناج التي يتوصل إليها المتحاورون ، والالتزام الجاد بها ، وبما يترتب عليها .

وإذا لم يتحقق هذا الأصل كانت المناظرة ضرباً من العبث الذي ينتزه عنه العقلاء .

يقول ابن عقيل : (وليقبل كل واحد منهما من صاحبه الحجة ؛ فإنه أنبل لقدره ، وأعون على إدراك الحق وسلوك سبيل الصدق .

قال الشافعي رضي الله عنه : ماناظرت أحداً فقبل مني الحجة إلا أعظم في عيني ، ولا ردّها إلا سقط في عيني)^(١) .

(١) علم الجدل ص ١٤ .

آداب الحوار:

١. التزام القول الحسن ، وتجنب منهج التحدي والافحام :

إن من أهم ما يتوجه إليه المُحاور في حوارهِ ، التزام الحُسنى في القول والمجادلة ، ففي محكم التنزيل : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الاسراء : ٥٣ . ﴿ وَخَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل ١٢٥ . ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ البقرة : ٨٣ .
فحق العاقل اللبيب طالب الحق ، أن ينأى بنفسه عن أسلوب الطعن والتجريح والهزء والسخرية ، وألوان الاحتقار والإثارة والاستفزاز .

ومن لطائف التوجيهات الإلهية لنبينا محمد ﷺ في هذا الباب ، الانصراف عن التعنيف في الرد على أهل الباطل ، حيث قال الله لنبيه : ﴿ وَإِنْ جَدَلْتَهُمْ فَقُلْ إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ اللَّهُ بِحُكْمِ بَيْنِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ الحج : ٦٨ .

وقوله ﴿ وَإِنَّا أَوْلَىٰ بِالْكَلِمِ لِمَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ :

٢٤ . مع أن بطلانهم ظاهر ، وحجتهم داحضة .

ويلحق بهذا الأصل : تجنب أسلوب التحدي والتعسف في الحديث ، وتعمد إيقاع الخصم في الإحراج ، ولو كانت الحجة

بينة والدليل دامغاً . . فإن كسب القلوب مقدم على كسب
المواقف . وقد تُفجِّم الخصم ولكنك لا تقنعه ، وقد تُسكِّته بحجة
ولكنك لا تكسب تسليمه وإذعانه ، وأسلوب التحدي يمنع
التسليم ، ولو وُجِدَت القناعة العقلية . والحرص على القلوب
واستلال السخائم أهم وأولى عند المنصف العاقل من استكثار
الأعداء واستكفاء الإناء . وإنك لتعلم أن إغلاظ القول ، ورفع
الصوت ، وانتفاخ الأوداج ، لا يولد إلا غيظاً وحقداً وحنقاً . ومن
أجل هذا فليحرص المحاور ؛ ألا يرفع صوته أكثر من الحاجة
فهذا رعونة وإيذاء للنفس وللغير ، ورفع الصوت لا يقوي حجة
ولا يجلب دليلاً ولا يقيم برهاناً ؛ بل إن صاحب الصوت العالي لم
يَعْلُ صوته - في الغالب - إلا لضعف حجته وقلة بضاعته ، فيستر
عجزه بالصراخ ويواري ضعفه بالعويل . وهدوء الصوت عنوان
العقل والاتزان ، والفكر المنظم والنقد الموضوعي ، والثقة
الواثقة .

على أن الإنسان قد يحتاج إلى التغيير من نبرات صوته حسب
استدعاء المقام ونوع الأسلوب ، لينسجم الصوت مع المقام
والأسلوب ، استفهامياً كان ، أو تقريرياً أو إنكارياً أو تعجبياً ، أو

غير ذلك ، مما يدفع الملل والسامة ، ويُعين على إيصال
الفكرة ، ويجدد التنبيه لدى المشاركين والمتابعين .

على أن هناك بعض الحالات الاستثنائية التي يسوغ فيها
اللجوء إلى الإفحام وإسكات الطرف الآخر ؛ وذلك فيما إذا
استطال وتجاوز الحد ، وطغى وظلم وعادى الحق ، وكابر مكابرة
بينة ، وفي مثل هذا جاءت الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ
الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ العنكبوت : ٤٦
﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ . النساء : ١٤٨
ففي حالات الظلم والبغي والتجاوز ، قد يُسمح بالهجوم الحادّ
المركز على الخصم وإحراجه ، وتسفيه رأيه ؛ لأنه يمثل الباطل ،
وحسن أن يرى الناس الباطل مهزوماً مدحوراً .

وقبل مغادرة هذه الفقرة من الأدب ، لابد من الإشارة إلى
ما ينبغي من البعد من استخدام ضمير المتكلم أفراداً أو جمعاً ؛
فلا يقول : فعلتُ وقلتُ ، وفي رأبي ، ودَرسنا ، وفي تجربتنا ؛
فهذا ثقيل في نفوس المتابعين ، وهو عنوان على الإعجاب
بالنفس ، وقد يؤثر على الإخلاص وحسن القصد ، والناس تشمئز

من المتعالم المتعالي ، ومن اللائق أن يبدلها بضمير الغيبة
فيقول : يبدو للدارس ، وتدل تجارب العاملين ، ويقول
المختصون ، وفي رأي أهل الشأن ، ونحو ذلك .

وأخيراً فمن غاية الأدب واللباقة في القول وإدارة الحوار ألا
يَفْتَرِضَ في صاحبه الذكاء المفرط ، فيكلمه بعبارات مختزلة ،
وإشارات بعيدة ، ومن ثم فلا يفهم . كما لا يفترض فيه الغباء
والسذاجة ، أو الجهل المطبق ؛ فيبالغ في شرح ما لا يحتاج إلى
شرح وتبسيط ما لا يحتاج إلى بسط .

ولاشك أن الناس بين ذلك درجات في عقولهم وفهومهم ،
فهذا عقله متسع بنفس رَحْبَةٍ ، وهذا ضيق العَطْنُ ، وآخر يميل
إلى الأحوط في جانب التضييق ، وآخر يميل إلى التوسع ، وهذه
العقليات والمدارك تؤثر في فهم ما يقال . فذو العقل اللّمّاح
يستوعب ويفهم حرفية النص وفحواه ومراد المتكلم وما بين
السطور ، وآخر دون ذلك بمسافات .

ولله الحكمة البالغة في اختلاف الناس في مخاطباتهم
وفهومهم .

٢ - الالتزام بوقت محدد في الكلام :

ينبغي أن يستقر في ذهن المُحاور ألا يستأثر بالكلام ، ويستطيل في الحديث ، ويسترسل بما يخرج به عن حدود اللباقة والأدب والذوق الرفيع .

يقول ابن عقيل في كتابه فن الجدل : (وليتناوبا الكلام مناوبة لا مناهبة ، بحيث ينصت المعترض للمستدلّ حتى يفرغ من تقريره للدليل ، ثم المُستدلّ للمعترض حتى يُقرر اعتراضه ، ولا يقطع أحد منهما على الآخر كلامه وإن فهم مقصوده من بعضه) .

وقال : (وبعض الناس يفعل هذا تنبيهاً للحاضرين على فطنته وذكائه ، وليس في ذلك فضيلة إذ المعاني بعضها مرتبط ببعض وبعضها دليل على بعض ، وليس ذلك علم غيب ، أو زجراً صادقاً ، أو استخراج ضمير حتى يفتخر به) (١) .

والطول والاعتدال في الحديث يختلف من ظرف إلى ظرف ومن حال إلى حال ، فالندوات والمؤتمرات تُحدّد فيها فرص الكلام من قبل رئيس الجلسة ومدير الندوة ، فينبغي الإلتزام بذلك .

(١) علم الجدل ص ١٣ .

والندوات واللقاءات في المعسكرات والمنتزهات قد تقبل الإطالة أكثر من غيرها ، لتهيؤ المستمعين . وقد يختلف ظرف المسجد عن الجامعة أو دور التعليم الأخرى .

ومن المفيد أن تعلم ؛ أن أغلب أسباب الإطالة في الكلام ومقاطعة أحاديث الرجال يرجع إلى مايلي :

١ - إعجاب المرء بنفسه .

٢ - حبّ الشهرة والثناء .

٣ - ظنّ المتحدث أن ما يأتي به جديد على الناس .

٤ - قِلَّة المبالاة بالناس في علمهم ووقتهم وظرفهم .

والذي يبدو أن واحداً منها إذا استقر في نفوس السامعين كافٍ في صرفهم ، وصدودهم ، ومللهم ، واستثقالهم لمحدثهم .

وأنت خبير بأن للسامع حدّاً من القدرة على التركيز والمتابعة إذا تجاوزها أصابه الملل ، وانتابه الشُّرود الذّهنيّ . ويذكر بعضهم أن هذا الحدّ لا يتجاوز خمس عشرة دقيقة .

ومن الخير للمتحدث أن يُنهي حديثه والناس متشوفة للمتابعة ، مستمتعة بالفائدة . هذا خير له من أن تنتظر الناس انتهاءه وقفل حديثه ، فالله المستعان .

٣. حسن الاستماع وأدب الانصات وتجنب المقاطعة :

كما يطلب الالتزام بوقت محدد في الكلام ، وتجنب الاطالة قدر الإمكان ، فيطلب حُسن الاستماع ، واللباقة في الإصغاء ، وعدم قطع حديث المُحاور . وإنَّ من الخطأ أن تحصر همك في التفكير فيما ستقوله ، ولاتُلقي بالألِّ لمُحدثك ومُحاورك ، وقد قال الحسن بن علي لابنه ، رضي الله عنهم أجمعين :

(يا بني إذا جالست العلماء ؛ فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول ، وتعلِّم حُسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ولا تقطع على أحد حديثاً - وإن طال - حتى يُمسك) .
ويقول ابن المقفع :

(تَعَلِّم حُسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ؛ ومن حسن الاستماع : إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه . وقلة التلفت إلى الجواب . والإقبال بالوجه . والنظر إلى المتكلم . والوعي لما يقول) .

لابدَ في الحوار الجيِّد من سماع جيِّد ؛ والحوار بلا حُسن استماع هو (حوار طُرْشان) كما تقول العامة ، كل من طرفيه منعزل عن الآخر .

إن السماع الجيّد يتيح القاعدة الأساسية للقاء الآراء ،
وتحديد نقاط الخلاف وأسبابه . حسن الاستماع يقود إلى فتح
القلوب ، واحترام الرجال وراحة النفوس ، تسلم فيه الأعصاب
من التوتر والتشنج ، كما يُشعرُ بجديّة المُحاور ، وتقدير
المُخالف ، وأهمية الحوار . ومن ثم يتوجه الجميع إلى تحصيل
الفائدة والوصول إلى النتيجة .

٤ . تقدير الخصم واحترامه :

ينبغي في مجلس الحوار التأكيد على الاحترام المتبادل من
الأطراف ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، والاعتراف بمنزلته
ومقامه ، فيخاطب بالعبارات اللائقة ، والألقاب المستحقة ،
والأساليب المهذبة .

إن تبادل الاحترام يقود إلى قبول الحق ، والبعد عن الهوى ،
والانتصار للنفس . أما انتقاص الرجال وتجهيلها فأمر معيب
مُحرّم .

وما قيل من ضرورة التقدير والاحترام ، لا ينافي النصح ،
وتصحيح الأخطاء بأساليبه الرفيعة وطرقه الوقورة . فالتقدير

والاحترام غير المَلقِ الرخيص ، والنفاق المرذول ، والمدح الكاذب ، والإقرار على الباطل .

ومما يتعلق بهذه الخصلة الأدبية أن يتوجه النظر وينصرف الفكر إلى القضية المطروحة ليتم تناولها بالبحث والتحليل والنقد والإثبات والنقض بعيداً عن صاحبها أو قائلها ، كل ذلك حتى لا يتحول الحوار إلى مبارزة كلامية ؛ طابعها الطعن والتجريح والعدول عن مناقشة القضايا والأفكار إلى مناقشات التصرفات ، والأشخاص ، والشهادات ، والمؤهلات والسير الذاتية .

٥. حصر المناظرات في مكان محدود :

يذكر أهل العلم أن المُحاورات والجدل ينبغي أن يكون في خلوات محدودة الحضور ؛ قالوا : وذلك أجمع للفكر والفهم ، وأقرب لصفاء الذهن ، وأسلم لحسن القصد ، وإن في حضور الجمع الغفير ما يحرك دواعي الرياء ، والحرص على الغلبة بالحق أو بالباطل .

ومما استدل به على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفَىٰ ذُرِّيَّتِكُمْ وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَنْبِيَاءَ كَمَا تَقُومُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ۗ ﴾ سبأ : ٣٤

قالوا : لأن الأجواء الجماهيرية والمجتمعات المتكاثرة تُغطي الحق ، وتُشوِّش الفكر ، والجماهير في الغالب فئات غير مختصة ؛ فهي أقرب إلى الغوغائية والتقليد الأعمى ، فيَلْتَبَسُ الحق .

أما حينما يكون الحديث مثني وفرادى وأعداداً متقاربة يكون ادعى إلى استجماع الفكر والرأي ، كما أنه أقرب إلى أن يرجع المخطيء إلى الحق ، ويتنازل عما هو فيه من الباطل أو المشتبه .

بخلاف الحال أمام الناس ؛ فقد يعزّز عليه التسليم والاعتراف بالخطأ أمام مؤيديه أو مُخالفيه .

ولهذا وُجِّه نبينا محمد ﷺ في هذه الآية إلى أن يخاطب قومه بهذا ؛ لأن اتهاماتهم له كانت اتهامات غوغائية ، كما هي حال الملأ المستكبرين مع الأنبياء السابقين .

ومما يوضح ذلك ما ذكرته كتب السير أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم

بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا ؛ وقال بعضهم لبعض لاتعودوا ، فلورآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لانبرح حتى نتعاهد لانعود . فتعاهدوا على ذلك . ثم تفرقوا . فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج ، حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها . قال الأحنس : وأنا ، والذي حَلَفْتُ به ! . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ؛ أطعموا

فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا
على الرُّكْبِ وكُنَّا كفرسَى رِهَانٍ ، قالوا مِنَّا نبي يأتِيهِ الوحي من
السماء ! فمتى نُدرِكُ هذا ؟! والله لانؤمن به ولانصدقَه . قال :
فقام عنه الأخنس وتركه .

٦. الإخلاص :

هذه الخصلة من الأدب متممة لما ذكر من أصل التجرد في طلب
الحق ، فعلى المُحاور ان يوطِّن نفسه ، ويُرَوِّضها على
الإخلاص لله في كل ما يأتي وما يذر في ميدان الحوار وحلبته .

ومن أجلى المظاهر في ذلك : أن يدفع عن نفسه حب الظهور
والتميز على الأقران ، وإظهار البراعة وعمق الثقافة ، والتعالي
على النظراء والأنداد . إنَّ قَصْدَ انتزاع الإعجاب والثناء
واستجلاب المديح ، مُفسد للأمر ، صارف عن الغاية .

وسوف يكون فحص النفس دقيقاً وناجحاً لو أن المُحاور توجه
لنفسه بهذه الأسئلة :

- هل ثُمّت مصلحة ظاهرة تُرجى من هذا النقاش وهذه
المشاركة ؟ .

- هل يقصد تحقيق الشهرة أو اشباع الشهوة في الحديث والمشاركة .؟

- وهل يتوخى أن يتمخض هذا الحوار والجدل عن نزاع وفتنة ، وفتح أبواب من هذه الألوان حقها أن تسد .؟

ومن التحسس الدقيق والنصح الصادق للنفس أن يحذر بعض التلبسات النفسية والشيطانية ، فقد تتوهم بعض النفوس أنها تقصد إحقاق الحق ، وواقع دخيلتها أنها تقف مواقف إنتصار ذات وهوى . ويدخل في باب الاخلاص والتجرد توطين النفس على الرضا والارتياح إذا ظهر الحق على لسان الآخر ورأيه ، ويعينه على ذلك أن يستيقن أن الآراء والأفكار ومسالك الحق ليست ملكاً لواحد أو طائفة ، والصواب ليس حكراً على واحد بعينه . فهم المخلص ومهمته أن ينتشر الحق في كل مكان ، ومن أي مكان ، ومن أي وعاء ، وعلى أي فم .

إن من الخطأ البين في هذا الباب أن تظن أن الحق لا يغار عليه إلا أنت ، ولا يحبه إلا أنت ، ولا يدافع عنه إلا أنت ، ولا يتبناه إلا أنت ، ولا يخلص له إلا أنت .

ومن الجميل ، وغاية النبل ، والصدق الصادق مع النفس ،
وقوة الإرادة ، وعميق الإخلاص ؛ أن تُوقَفَ الحوار إذا وجدتَ
نفسك قد تغير مسارها ودخلتُ في مسارب اللجج والخصام ،
ومدخلات النوايا .

هذا ماتيسر تدوينه والله وليُّ التوفيق ، وصلى الله على محمد
وآله وصحبه وسلم .

صالح بن عبدالله بن حميد

مكة المكرمة

الفهرس

- توطئة ٥
- تعريف ٦
- غاية الحوار ٧
- وقوع الخلاف بين الناس ٨
- وضوح الحق وجلأؤه ١٠
- مواطن الاتفاق ١٢
- أصول الحوار :
- الأصل الأول : سلوك الطرق العلمية والتزامها ١٤
- الأصل الثاني : سلامة كلام المتناظرين من التناقض ١٤
- الأصل الثالث : الا يكون الدليل هو عين الدعوى ١٥
- الأصل الرابع : الاتفاق على منطلقات ثابتة ١٦
- الأصل الخامس : التجرد وقصد الحق ١٨
- الأصل السادس : أهلية المحاور ٢١
- الأصل السابع : قطعية النتائج ونسبيتها ٢٣
- الأصل الثامن : الرضا والقبول بالنتائج ٢٤

- آداب الحوار :

- ٢٥ ١ - التزام القول الحق
- ٢٩ ٢ - الالتزام بوقت محدد في الكلام
- ٣١ ٣ - حسن الاستماع وأدب الانصات وتجنب المقاطعة
- ٣٢ ٤ - تقدير الخصم واحترامه
- ٣٣ ٥ - حصر المناظرات في مكان محدود
- ٣٦ ٦ - الاخلاص
